محاضرة في كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين

تمهيد

يُعَدُّ كتاب «الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين» من أهم كتب التراث النحوي التي تناولت الخلاف بين المدرستين البصرية والكوفيّة تناولًا علميًا منظمًا. وتذكر المصادر أن مؤلفه هو أبو البركات كمال الدين ابن الأنباري، وأن الكتاب يعرض مسائل الخلاف المشهورة بين الفريقين في صياغة قائمة على عرض القولين، وذكر الأدلة، ثم الترجيح والحكم في كثير من المواضع.

وتنبع أهمية الكتاب من أنه لا يقتصر على جمع الخلافات النحوية، بل يحولها إلى مادة علمية تعليمية تكشف أصول الاستدلال النحوي، وطرائق النظر في الأدلة، وأساليب بناء الحكم اللغوي. ولهذا بقي الكتاب مرجعًا مهمًا لطلبة النحو واللغة العربية، واحتل مكانة بارزة في الدراسات الجامعية المتعلقة بتاريخ النحو ومناهج النحاة.

أولًا: التعريف بالمؤلف والكتاب

أبو البركات ابن الأنباري من كبار النحاة في التراث العربي، وتذكر البيانات الببليوغرافية أن اسمه عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، المعروف بكمال الدين الأنباري، المتوفى سنة 577هـ. وقد اشتهر بعنايته بالنحو والجدل اللغوي، وبقدرته على عرض الخلافات العلمية بأسلوب تعليمي واضح.

أما الكتاب فيحمل عنوانًا دالًا على مضمونه، فهو «الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين». وتشير المصادر إلى أن الكتاب طُبع في جزأين، وأنه من أكثر الكتب شمولًا في تناول الخلاف بين المدرستين، حتى عده بعض الباحثين أهم كتاب جمع هذه المسائل بهذا الاتساع والتنظيم.

ثانيًا: موضوع الكتاب وغايته

موضوع الكتاب هو عرض المسائل التي وقع فيها الخلاف بين البصريين والكوفيين في أبواب النحو المختلفة، مع بيان رأي كل فريق وأدلته، ثم مناقشة تلك الأدلة والترجيح بينها. وتفيد المصادر أن عدد هذه المسائل يقارب مائةً وعشرين أو إحدى وعشرين مسألة، وهو عدد كبير يدل على سعة الكتاب وشموله لكثير من أبواب الدرس النحوي.

أما غاية الكتاب فلا تقف عند مجرد السرد، بل تتجاوز ذلك إلى تكوين الملكة العلمية لدى القارئ؛ إذ يتعلم الطالب من خلاله كيف يبني النحوي قوله، وكيف يستدل له، وكيف يرد على الخصم، وكيف يوازن بين القياس والسماع والاستصحاب. ومن هنا صار الكتاب أقرب إلى مدرسة في التفكير النحوي منه إلى مجرد كتاب مسائل.

ثالثًا: منهج ابن الأنباري في التأليف

من أبرز ما يميز ابن الأنباري في هذا الكتاب أنه يسير في منهج منظم متكرر؛ إذ يبدأ عادة بذكر مذهب الكوفيين، ثم يعقبه بمذهب البصريين، ثم يسرد حجج كل فريق، ثم يتولى المناقشة والرد، وينتهي في كثير من المواضع إلى الحكم أو الترجيح. وقد وصفت بعض الدراسات هذه الطريقة بأنها تشبه بناء المحكمة؛ حيث توجد دعوى، ثم أدلة، ثم مناقشة، ثم حكم.

وهذا المنهج منح الكتاب وضوحًا تربويًا كبيرًا، لأن القارئ لا يواجه النتيجة وحدها، بل يمر بجميع المراحل المؤدية إليها. وبهذا يتعلم أن الحكم النحوي لا يُبنى على الذوق المجرد، بل على أصول واستدلالات وقواعد حجاجية. كما أن هذا الترتيب جعل الكتاب صالحًا للتدريس الجامعي، ولإبراز الفروق بين مناهج المدرستين.

رابعًا: أصول الاستدلال في الكتاب

تشير الدراسات الحديثة إلى أن ابن الأنباري اعتمد في كتابه على أصول مشهورة في الاستدلال النحوي، أهمها النقل، والقياس، واستصحاب الحال. ويظهر ذلك في طريقته في عرض الأقوال؛ إذ يحتج أحيانًا بالنصوص المسموعة من القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام العرب، ويحتج أحيانًا أخرى بالقياس النحوي، أو ببقاء الأصل حتى يقوم دليل ينقله عنه.

ومن هنا تتضح القيمة المنهجية للكتاب؛ فهو لا يشرح النتائج فقط، بل يكشف البنية المنطقية التي ينشأ عنها الحكم النحوي. وهذه ميزة بالغة الأهمية لطلبة النحو، لأنهم من خلالها يفهمون لماذا اختلف البصريون والكوفيون، ولماذا رجح بعض النحاة قولًا على آخر، وكيف تشكلت المدارس النحوية من خلال طرائقها في الاستدلال.

خامسًا: طبيعة الخلاف بين البصريين والكوفيين

يمثل الكتاب سجلًا علميًا حيًا لطبيعة الخلاف بين البصريين والكوفيين. فالبصريون عُرفوا غالبًا بشدة الاعتماد على القياس، والحرص على اطراد القاعدة، والتشدد في قبول الشواهد، بينما مال الكوفيون في مواطن كثيرة إلى التوسع في السماع، والأخذ بالشواهد المتعددة، وإجازة ما رفضه غيرهم إذا وجدوا له وجهًا في كلام العرب.

ولا يعني هذا أن أحد الفريقين كان على صواب مطلق دائمًا، بل إن قيمة الكتاب تكمن في إظهار أن الخلاف النحوي كان جزءًا من حيوية الدرس اللغوي العربي. وقد أتاح هذا الخلاف للنحو العربي أن ينمو ويتسع، وأن تتعدد زوايا النظر في المسألة الواحدة، وهو ما جعل الكتاب مصدرًا مهمًا لفهم تاريخ النحو لا مجرد قضاياه الجزئية.

سادسًا: أمثلة من مسائل الخلاف

من المسائل التي عالجها الكتاب اختلافهم في العامل في المستثنى بـ«إلا»، واختلافهم في العطف على الضمير المرفوع المتصل، وفي عمل «حتى» مع الفعل المضارع، وفي صيغة «أفعل» في باب التعجب. وقد أظهرت المصادر أن ابن الأنباري عرض في هذه المسائل آراء المذهبين، وذكر حجج الكوفيين والبصريين، ثم ناقشها في ضوء أصوله النحوية.

وتفيد بعض النصوص أن الكوفيين ذهبوا في مسألة «أفعل» في التعجب إلى أنه اسم جامد، بينما ذهب البصريون إلى أنه فعل ماض. وتظهر قيمة الكتاب في مثل هذه القضايا في أنه لا يكتفي بنقل الخلاف، بل يكشف طبيعة التفكير التي أنتجت كل رأي، ويربط كل مذهب بأدلته اللغوية والقياسية.

سابعًا: مدى إنصاف ابن الأنباري

أثار عنوان الكتاب «الإنصاف» سؤالًا مهمًا عند الباحثين: هل كان ابن الأنباري منصفًا بالفعل بين المدرستين؟ وتشير بعض الدراسات إلى أنه حاول أن يلتزم عرض الأقوال بأمانة، وأن يبني أحكامه على الحجة، غير أن كثيرًا من الدارسين لاحظوا ميله إلى ترجيح المذهب البصري في أغلب المسائل، حتى ذُكر أنه لم يرجح مذهب الكوفيين إلا في عدد قليل من القضايا.

ومع ذلك فإن هذه الملاحظة لا تنقص من قيمة الكتاب العلمية؛ لأن أهميته لا تقوم على الحياد الشكلي فقط، بل على حسن العرض، وقوة التنظيم، ووضوح المنهج، وكثرة الشواهد، ودقة المناقشة. ولهذا بقي الكتاب مرجعًا لا غنى عنه في دراسة الخلاف النحوي، حتى عند من يختلفون مع بعض ترجيحات مؤلفه.

ثامنًا: أهمية الكتاب لطلبة البكالوريوس

يفيد هذا الكتاب طلبة البكالوريوس في أكثر من جانب. فهو أولًا يعرّفهم بطبيعة المدارس النحوية الكبرى، ويجعلهم يدركون أن النحو العربي لم يكن علمًا جامدًا، بل كان ميدانًا للنقاش والحجاج والاستنباط. وهو ثانيًا يدربهم على قراءة المسألة النحوية قراءة تحليلية، تبدأ من تحديد محل الخلاف، ثم عرض الأقوال، ثم فحص الأدلة، ثم الوصول إلى الترجيح.

كما يفيدهم في تنمية الحس العلمي؛ لأن القارئ يتعلم منه أن الرأي لا يكون معتبرًا إلا إذا تأسس على دليل، وأن الخلاف ليس عيبًا في العلم، بل قد يكون علامة على عمقه واتساعه. ولهذا يمكن أن يقدم الكتاب في المحاضرة الجامعية بوصفه نموذجًا تطبيقيًا لكيفية نشوء الخلاف النحوي، وكيفية إدارة الحوار العلمي بين المدارس المختلفة.

خاتمة

خلاصة القول إن كتاب «الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين» يُعَد من أهم المراجع في تاريخ النحو العربي؛ لأنه جمع مسائل الخلاف الكبرى، وعرضها في إطار تعليمي منظم، وربط بينها وبين أصول الاستدلال النحوي. وقد جعل ابن الأنباري من الخلاف بابًا للفهم والتحليل، لا مجرد باب للتنازع أو التعدد الشكلي في الأقوال.

ومن هنا فإن دراسة هذا الكتاب في المرحلة الجامعية تكسب الطالب معرفة بتاريخ النحو، وبمناهج النحاة، وبكيفية بناء الدليل والرد والترجيح. وبهذا يكون «الإنصاف» كتابًا تأسيسيًا لكل من أراد أن يفهم النحو العربي فهمًا علميًا عميقًا، وأن يدرك قيمة الخلاف في إثراء التراث اللغوي العربي.